استراتيجية الفعل السيميائي لدى" جوزيف كورتيس" أسئلة النشأة وآليات القراءة

الأستاذة زهــور شــتوح
جامعة الحاج لخضر– باتنة/ الجزائر

تعد مدرسة باريس السيميائية من المدارس الطيعة التي تسمح بالاعتراف الدائم من مختلف المباحث العلمية، وخاصة منها تلك التي عرفت مفاهيمها ومصطلحاتها وكذا مناهجها قبولا في الحقل المعرفي، حيث نلحظ مثلا أن الإطار المفهومي اللساني السويسري مثلا أو الياكوسبوني أو اليالمسيلفي أو بنيوية ليفي ستراوس أو مختلف النماذج المنطقية والرياضية المختلفة سواء ما تعلق منها بالمربع السيميائي ومجموعة كلين نجد أنها تمثل الدليل القاطع على اتساع الأفق النظري السيميائي المفتوح الذي يهدف في برنامجه إلى« انشاء نظرية للدلالة وليس فقط(نظرية) تواصلية قصدية، إنها نظرية تتكفل بالألسن وكذلك بكل اللغات»[1].

إن نظرة متأنية إلى سيميائية باريس- من خلال رائدها غريماس[2] وأتباعه- تجعلنا نقف لا محالة على عناصر قوتها الرئيسة والوقوف على روافدها ومسلماتها متمثلة في الاتجاه الشكلاني(فلادمير بروب)، اللسانيات البنوية، علم السرد، فالحديث عن غريماس إذا ليس عملا سهلا ينحصر في استعراض أهم التصورات المعرفية التي قدمها هذا الناقد فحسب، بل هو عمل معقد يتجاوز تلك الفردية ليتحول إلى جرد موضوعي يسعى إلى تقديم تصور نظري لاتجاه معرفي ممثلا في مدرسة باريس السيميائية والذي اقترن اسمه باسم هذا الباحث.

وقد جاءت تسمية هذا الاتجاه بـ" مدرسة باريس" حتى يتسنى تمييزها عن غيرها من الاتجاهات السيميائية الأخرى، وكذا البحوث الدلالية المختلفة، لكي تكون علامة لسانية فارقة يحيل معناها إلى العمل النظري الغريماسي الذي يمثل القاعدة المنهجية لمدرسة باريس والمتمثل في" الدلالية البنوية" وقد أحدث هذا الأخير أثرا كبيرا بين أوساط اللسانيين ما جعل

العديد من الباحثين يتبنونه كونه يقدم رؤية نظرية جديدة للدلالة، ذلك أن مقصد النظرية السيميائية« بوصفها نظرية للدلالة تهتم بتوضيح شروط القبض على إنتاج المعنى»[3]. ولنا أن نقف هنا عند أهم الاتجاهات السيميائية المعاصرة.

الاتجاهات السيميائية المعاصرة:

يرجع التفكير السيميائي رؤية ومنهجا إلى أعمال الفيلسوف المنطقي والرياضي الأمريكي" شارلز ساندر بيرس" من خلال كتابه" كتابات حول العلامة"، فقد أرسى قواعدها منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكذلك إلى افتراضات العالم اللساني البنيوي السويسري" فرديناندي سويسر" بوجود علم جديد سماء السيمولوجيا، سيكون جزءا من علم النفس العام، وسيدرس كل العلامات الدالة التي لا تدرس اللسانيات إلا اللفظية منها، حيث تعنى أساسا باللسان، وستكون اللسانيات بذلك ضمن علم أشمل هو السيمولوجيا. وقد أدى الاختلاف في الإبدالات النظرية التي يستند إليها كلاهما إلى اختلافهما في البناء التصوري لهذا العلم الجديد استقبالا، لأن كل واحد منهما ينطلق من أسس ابستيمولوجية مختلفة فـ" بورس" منطقي رياضي فيزيائي، أما" دوسوسور" فلساني، كان اهتمامه الرئيس بلورة علم اللغة متأثرا بعلم الاجتماع خصوصا، وهذا ما يبرر اختلافهما في العلامة، الموضوع نفسها فهي ثلاثية عند" بورس" وثنائية عند" دوسوسور" فلا خير إذا في نعت هذا العلم بالسيمولوجيا وفقا للتصور السوسوري أو وسمه بالسيميائيات استنادا إلى بورس لكن يبقى هذا الاختلاف في التسمية شكليا.

وبهذا تعددت اتجاهات النظرية السيميائية واختلفت نماذجها وأطرها المرجعية بحسب التحاقل المعرفي الذي شهده هذا العلم خصوصا في أواسط القرن الماضي، بالموازاة مع تطور مجموعة من العلوم التي تفاعلت معها السيميائيات تأثيرا وتأثرا.

أضحى للسيميائية اتجاهات عدة، ونقطة الاختلاف بينها وبين القصدية هي العلامة فهناك من يؤكد الطبيعة التواصلية للعلامة: دال+ مدلول+ قصد، وهناك من يركز على الجانب التأويلي للعلامة من حيث قابليتها للتأويل الدلالي بالنسبة للمتلقي ومنه تحوي السيميائية المعاصرة ثلاث اتجاهات هي :

1- **سيمولوجيا التواصل semologie de communication:**

يهتم أصحاب هذا الاتجاه بدراسة طرق التواصل وكيفية تحققه مع الغير، إذ يعتبر التواصل حسبهم وظيفة اللسان الأساسية التي يقوم عليها ومن ثم فإن العلامات اللسانية تنقسم إلى صنفين كبيرين علامات الكلام وعلامات الكتابة[4]، فهي تهدف إلى الإبلاغ والتأثير على الغير عن وعي أو عن غير وعي.

واللغة من منظور سيمولوجيا التواصل ماهي إلا نظام تواصل يتضمن قدرا كبيرا من الانسجام، يسمح للدراسة اللسانية الاهتمام بالنموذج الذي قدمه جاكسون:

البث← الرسالة← المتلقي← سنن الرسالة← مرجعيتها، وذلك بتجاوز التطبيق اللساني إلى القراءة اللسانية للنصوص ومظاهر التعبير الأخرى[5].

فالبث حسب" جاكسون" يولد الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية، وتتولد الوظيفة الانشائية أو الشعرية بعدها في الرسالة المبثوثة، وعليه يجب مراعاة الوظيفية الافهامية من قبل المرسل إليه فيها بعد ذلك وتتولد وظيفة ما وراء اللغة في سنن الرسالة[6].

وقد تزعم هدا الاتجاه كل من" جورج مونان" و" بريتو" و" بويسنس" وهم يركزون على وظيفة أساسية للإنسان هي التواصل المشروط بالقصدية وإرادة المتكلم في التأثير على الغير[7] وذلك من خلال دراستهم لجميع أشكال الأنظمة التواصلية اللغوية وغير اللغوية وخاصة منهم" بويسنس" حيث قام بتوضيح الألفاظ اللغوية في تفسير العلامات غير اللغوية فالسيميولوجيا حسب رأيه هي التي تهتم بالوقائع القابلة للإدراك المرتبطة بحالات الوعي.

وقد ساهم أتباع هذا الإتجاه في بلورة المشروع السويسري القاضي بأن اللغة هي نظام للتواصل، وأقصوا ذلك النوع من سيمولوجيا الدلالة، وأقر" بريتو" أن:« مايميز الوظيفة التواصلية عن الوظيفة الدلالية حصرا هو القصدية التي تتجلى في الأولى لا في الثانية»[8]. وهذا يعني أن تحديد معاني تعابير معينة في الخطاب اللساني وغير اللساني مرتبط بتعيين مقاصد المتكلمين، فتكون تلك المقاصد ملمحا مميزا[9].

2- **سيمولوجيا الثقافة:**

يمثل هذا الاتجاه كل من" تودورف" و" إيفانوف" و" يوري لوتمان"، وتنطلق سيمولوجيا الثقافة من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية، حيث أن الثقافة برامج وتعليمات تتحكم في سلوك الانسان، هذا الأخير يحقق تواصلا عن طريق إدراكه للعالم بواسطة أنساق الثقافة الدالة(اللفظية منها وغير اللفظية)، والثقافة بالتالي نسق مكون من أنساق عدة(لغات، طقوس، فنون، ديانات...) وكل نسق منها لا يعد نسقا تواصليا فحسب، وإنما نسق منمذج في العالم[10].

3- **سيمولوجيا الدلالة:**

يهتم هذا الاتجاه بدراسة أنظمة الدلائل التي لا تستبعد الإيحاء، والحديث عن الظواهر الدلالية يستدعي بالضرورة الحديث عن العلامة ذلك أن الظواهر الدلالية ماهي إلا نسق مكون من علامات أو رموز، باعتبار كون اللغة شرط ضروري لنقل المعرفة وبالتالي لا يمكن إغفال البعد السيميائي الذي تتوافر عليه النماذج التحليلية اللسانية وفيها تكون العلامة قابلة للتحليل ويضم هذا الاتجاه كلا من" رولان بارث. R.Barth" و" بيار جيرو. Pierre Jerro" و" غريماس Griemas" و" كورتيس Courtess"، وطبقوا المفهوم اللساني في شكله البنيوي ووجهته الدلالية الموصلة بالحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات[11]، ويقر" بارث" أن« اللغة لا تتخذ كل إمكانيات التواصل، لأننا نتواصل سواء توفرت القصدية أم لا، بكل الأشياء الطبيعية والثقافية، فاللغة دائما واسطة مهمة لكونها نسقا يقطع العام وينتج المعنى» وقد اعتبر كتابه" الأساطير. Mythologie"، انجيل المنهجية السيميولوجية على حد قول" برنارد توسان"[12].

وأما" غريماس" فركز على« تحديد عناصر فاعلية الخطاب المشكلة في أقطاب الصراع الدرامي في النص وهي المرسل والمتلقي والفاعل والموضوع والقيمة والمساعد والمعارض»[13].

أما" مبارك حنون" فيفضل التقسيم التالي: سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة وسيموطيقا بورس، ورمزية كاسير، وسيميولوجيا الثقافة مع الباحثين الروس" يوري لوتمان" و" إيفانوف وأوسباسنكي"... والباحثين الإيطاليين:" أمبرتو إيكو" و" روسي

لاندي" وتنطلق هذه السيمولوجيا من اعتبار« الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية»[14].

أما الأستاذ" محمد السرغيني"، فهو يرتضي تقسيما ثلاثيا للاتجاهات السيميولوجية، تتمثل في الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الفرنسي، والاتجاه الروسي، ولكنه يقسم الاتجاه الفرنسي إلى فروع على النحو التالي[15] :

1- سيميولوجيا التواصل والابلاغ ورائدها" جورج مونان".

2- اتجاه الدلالة الذي ينقسم بدوره إلى 4 اتجاهات هي:

أ/ اتجاه" بارت وميتز" الذي يحاول تطبيق اللغة على الأنساق غير اللفظية.

ب/ اتجاه مدرسة باريس الذي يضم:" ميشيل أريفي"، و" كلود كوكيه"،و" غريماس"، و" جوزيف كورتيس".

ج/ اتجاه السيميوطيقا المادية مع" جوليا كريستيفا".

د/ اتجاه الأشكال الرمزية مع" مولينو" و" جان جاك ناتيي" أو ما يسمى مدرسة" إيكس"

وتهدف هذه الورقة البحثية ملامسة حدود المنهج السيميائي لدى مدرسة باريس باعتباره أحد المناهج التي استطاعت أن تفرض نفسها في الساحة النقدية من خلال اهتمامها بتوضيح شروح انتاج المعنى، ونجد الدارسين المنتمين إلى هذه المدرسة قد كرسوا جهودهم لدراسة منحى صعب في اللسانيات وهو المدلول أو جانب المعني، مع استكشاف جميع القوانين الثاوية والثابتة التي تتحكم في توليد النصوص وذلك في كل تمظهراتها النصية واللامتناهية العدد والمختلفة على مستوى التنوع الأجناسي.

ولعل وجود المفاهيم اللسانية الخاصة سواء المستعارة كمفهوم العامل والقيمة والتلفظ والأيقونة...الخ دليل على انفتاح المشروع السيميائي الباريسي، إضافة إلى المفاهيم التي ابتدعتها كالتشاكل والسيمات...، ومن ثم لابد من الإشارة إلى أن وجود هذا المشروع السيميائي وبروزه إنما يرجع إلى اسهامات ثلة من الباحثين وعلى رأسهم" غريماس"، وكوكي و" ميشال أريفي" و" كالام" و" لندوفسكي" و" جوزيف كورتيس"، هذا الأخير الذي ستركز عليه هاته المداخلة بالدراسة لتوضيح عمق الفعل السيميائي لديه وكذا استراتيجيته السيميائية باعتباره أحد تلامذة" غريماس" الأوفياء لمقولاته السيميائية.

مبادئ السيميائية:

تبحث السيميائية دوما عن المعنى من خلال بنية الاختلاف ولغة الشكل والبنى الدالة، وهي بذلك لا تهتم بالنص ولا بمن قاله، وإنما تحاول الإجابة عن تساؤل واحد مفاده: كيف قال النص ما قاله؟

ومن أجل الإجابة عن هذا التساؤل يفكك النص ويعاد هيكلته وتركيبه من جديد لتحديد ثوابته البنيوية ويقوم هذا العمل على المبادئ التالية:

أ/ مبدأ المحايثة Immanence:

تسعى السيميائية إلى دراسة تجليات الدلالة من الداخل مرتكزة في ذلك على مبدأ المحايثة، حيث تخضع فيه الدلالة لقوانين داخلية خاصة مستقلة عن المعطيات الخارجية.

ويتبنى" لـيالمسليف L. Hjeelmslev" هذا المبدأ ليؤكد على ضرورة استبعاد الوقائع غير اللسانية من عملية الوصف والنظر إلى موضوع اللسانيات باعتباره شكلا، ومن هذا التحديد عمد" غريماس" إلى صياغة مبدأ المحايثة وفق منظورين:

المنظور الأول: يبنى هذا المنظور على مقولة التصديق véridiction المتمفصلة إلى محوري المحايثة(الكينونة)، والتجلي(الظاهر)، حيث تتفرع هذه الثنائية إلى أربع مقولات تظهر في المربع على النحو التالي[16]:

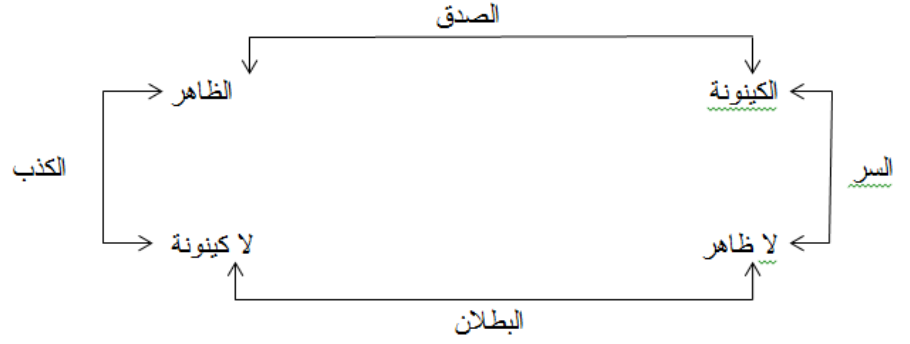

المنظور الثاني: يؤسس" غريماس" هذا المنظور على المقابلة: المحاثية/ السمو، أين يمكن أن تسخر على الرسم السردي لإبراز تباين موقعي الفاعل والمرسل.

ب/ مبدأ الاختلاف Différence:

إن وصف الأشكال الداخلية لدلالة النص يرتكز على مبدأ الاختلاف الذي أرسى قواعده" فرديناند دي سوسير"، وقد استعمله للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها، وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام.

وقد تمثل" غريماس" هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي الاقتراب من المسألة الدلالية، لاستيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى، دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى[17].

ويرتكز هذا التمثيل على فرضية" يالمسليف" والتي يمكن من خلالها فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير، وعليه فإن تمفصل العالم الدلالي إلى سيمات(وحدات معنوية صغرى) بوصفها وحدات دلالية قاعدية لا يتحقق وجودها إلا في علاقتها بعناصر أخرى، ولئن كانت وظيفتها خلافية فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية.

مستويات النص لدى مدرسة باريس:

اهتم أعضاء مدرسة باريس وعلى رأسهم" غريماس" بالشروط الداخلية للمعنى في النص، لأن التحليل حسب رائد هذه المدرسة لابد أن يكون محاثيا بحيث يقتصر الاشتغال النصي لعناصر المعنى دون اعتبار للعلاقة التي قد يقدمها النص مع أي عنصر خارجي لأن المعنى حسب" كورتيس" سيعتبر« كأثر وكنتيجة مستخلصة بواسطة لعبة العلاقات بين العناصر الدالة»[18]. وهو ما يتطلب التعرف على الوحدات المشكلة للنص باعتباره نسقا وبنية وهذا بهدف تحديد مستويات الوصف التي تتوزع على هذه العناصر قصد وصفها وضبط قواعدها المنظمة لها وبهذا تم تقسيم النص إلى مستويين.

أ/ المستوى السطحي.

ب/ المستوى العميق.

ويندرج هذا التقسيم ضمن نسق اشتغال البنية العاملية في المسار التوليدي لدى " غريماس" حيث قام هذا الأخير بتقسيم المسار التوليدي إلى بنيتين رئيسيتين:

بنية سيميائية سردية Structure sémio-narrative، وبنية خطابية Structure profonde، والمربع السيميائي/Carré sémiotique

أي البنية الأولية للدلالة وبنية سردية سطحية، فالأولى مجردة بينما الثانية بين المحاثية والتجلي أما البنية الخطابية فمتجلية متمظهرة، ويقع النموذج العاملي والخطاطة السردية معا في البنية السردية السطحية وهي بنية عاملية Structure actancielle تعد وسطا بين ما هو متجل منفرد وبين ما هو موغل في التجريد والتعميم، أما النص فيقدم على مستوى البنية العاملية بوصفه سلسلة من الحالات والتحولات(Etats et transformations) ما جعل " غريماس" يعترف أن السردية Narrativité توجد في كل الأنساق الدالة.

ويخضع السرد في المستوى السطحي لمقتضيات المواد اللغوية الحاملة له بمعنى مجموعة العناصر التي تدرك من خلال التشخيص ذاته، ويتعلق الأمر في هذا المستوى بالنظر إلى النص السردي في تجلياته الخطية المباشرة كما يقرأه قارئ عادي، ويشتمل هذا المستوى على تركيبتين

1- **تركيبة سردية:** تعمل على ضبط التوالي والترابط الخاص بالحالات والتحولات، ويتم في هذا المستوى الاعتماد على المكون السردي الذي يعمل على تنظيم تتابع حالات الشخصيات وتحولاتها، هذه التحولات التي تعمل على استرجاع موضوع القيمة من أجل الامساك بجوهر الدلالة.

2- **دلالة سردية:** يتم في هذا المستوى تناول المكون الخطابي الذي يتحكم في تسلسل الصور و آثار المعنى[19] ويعمل هذا المستوى على إعطاء شكل محدد لانتشار الوضعيات والأحداث والحالات والتحويلات في الخطاب، ويكون فيه النص عبارة عن متتالية من الحالات والتحويلات، ومنه كما يقول" سعيد بن كراد":« تعنى السيميائية بنظرية الدلالة وإجراءات التحليل التي تساعد على وصف أنظمة الدلالة»[20] ذلك أن السيميائية السردية تطرح دائما مشكلة المعنى من خلال وضع تصنيف للملفوظات السردية والتي تعتبر أصغر الوحدات الخطابية المكونة للنص السردي تتعامل مع النص« باعتباره فضاءا لغويا ومحددا لعدد لا متناه من الاستطرادات الممكنة»[21].

النموذج العاملي بوصفه نسقا:

إن النموذج العاملي يعد انتقالا من العلاقات(المربع السيميائي) إلى العمليات[22]، فنسقيته تتجلى في كونه صورة أو شكلا مثاليا تجريديا يعد بنية قابلة لفهم المتخيل البشري، وانعكاسا كذلك للكون الجماعي وينظر" غريماس" إلى الأنموذج وفق ثلاثة أزواج عاملية[23]:

1- **المرسل/ المرسل إليه(محور التواصل):** يتجلى دور العامل المرسل في اقناع العامل الذات بالبحث عن موضوع القيمة، كما أنه يقدم المسار السردي باعتباره فاعلا تأويليا، أما المرسل إليه فهو المستفيد من الموضوع.

2- **الذات/ الموضوع:** يشكل هذا الزوج القلب النابض في النموذج العاملي، إذ يعتبر محور الرغبة، رغبة الذات في الحصول على موضوع القيمة بعد إقناعها من قبل المرسل، أما الموضوع فهو المرغوب فيه من قبل الذات.

3- **المساعد/ المعاكس(أو المعيق):** يرتبط بحالة الصراع، فالمساعد يساعد العامل الذات في البحث عن موضوع القيمة، في حين يعمل المعاكس على تعطيل الذات في حصولها على موضوع القيمة ويرى" سعيد بن كراد" أن هذا النموذج بعلاقاته الثلاث، يضعنا أمام العلاقات المشكلة لأي نشاط إنساني كما يشكل طريقة في تعريف الحياة ومنحها معنى[24].

- النموذج العاملي بوصفه إجراء:

يعد النموذج العاملي بوصفه نسقا بنية ساكنة، لا تعرف الحركية إلا من خلال العبور من النسق إلى الإجراء، أي محاولة الانتقال بهذه العناصر المشكلة للنموذج العاملي من مجرد التصور النظري إلى الوجود والتحقق عبر خطاطة السردية المشكلة من الأربع مراحل وهي:

1- مرحلة التحفيز:(فعل الفعل)

حيث يتم إقناع العامل الذات من قبل المرسل بالبحث عن موضوع القيمة، ويقوم الذات بتأويل هذا العمل الإقناعي، وتمثل هذه المرحلة بالنسبة لتطور البرنامج السردي مرحلة ابتدائية، وستشكل بالنسبة للفاعل الاجرائي المرحلة التي يتم فيها امتلاكه القيم الاستعمالية الاحتمالية، إن أهم ما يميز هذه المرحلة من السرد هو فعل التأثير أو ما أسماه "كورتيس" بالفعل الإقناعي[25].

2- مرحلة القدرة:(كينونة الفعل)

إن الإقناع ليس كافيا لتحقيق الرغبة، بل لابد من تحقق القدرة أي الشروط الضرورية لتحقيق الإنجاز، وتتلخص في: إرادة الفعل، القدرة على الفعل، ووجود الفعل، ومعرفة الفعل، وترتبط جلها بالبعد التداولي. وهي الشروط التي تحدد حالة الذات السردية لتستعد للمرور من الفعل إلى الإنجاز.

3- مرحلة الإنجاز(فعل الكينونة):

تشكل هذه المرحلة نوعا من التحول لحالة معينة، تقتضي عاملا(Agent) هو الفاعل الإجرائي، بحيث يتم الانتقال إلى المحقق[26] وهذا التحقق يتطلب برنامجا أساسيا هدفه الحصول على موضوع القيمة، غير أن تحقيق الرغبة خاضع للبنية الجدلية التي تحكم النموذج العاملي، إذ نجد برنامجا مضادا يقوم به فاعل إجرائي مضاد.

4- مرحلة الجزاء:(كينونات الكينونة)

تعد هذه المرحلة الحلقة الرابعة داخل الخطاطة السردية ونقطة نهايتها، إنه الحكم على الإنجاز فالمرسل هو الذي يحكم على نجاح البرنامج السردي أو فشله باعتباره فاعلا تأويليا.

هذا وتتحدد البنية العاملية عند" غريماس" في ثلاثة محاور وست عوامل المحاور هي[27] : - محور التواصل. - محور الرغبة. - محور الصراع.

أما العوامل فهي: المرسل+ المرسل إليه+ الذات+ الموضوع+ المساعد+ المعاكس.

محور التواصل: المرسل ⟵ المرسل إليه.

محور الرغبة: الذات ⟵ الموضوع.

محور الصراع: المساعد ⟵ المعاكس.

لقد قاد هذا التصور" غريماس" إلى النظر إلى النص السردي من حيث هو انتقال من محتوى أولي إلى محتوى نهائي عبر مسالك مخصوصة، وهذا التصور العام يقود إلى الوقوف على البنية العميقة التي تسبق التحقق السردي المتجسد في الخطاب، كما أن هذا التصور المرتبط بالمربع السيميائي قد أسس لسيميائيات عامة لا تنحصر في مجال السرديات، بل تتجاوزه إلى مجالات أخرى.

نوعية الخطاب المستهدف بالتحليل لدى" جوزيف كورتيس":

إن ما يميز الاتجاه السيميائي لدى مدرسة باريس هو نوعية المتن أو الخطاب المستهدف بالتحليل، حيث لم ينحصر تحليلهم على الخطابات اللفظية فقط وإنما اتسع وامتد ليشمل كذلك كل الوقائع الدالة التي تنتجها الممارسة الإنسانية، وفي هذا يقول" جوزيف كورتيس" في كتابه سيميائية اللغة:« إن ميادين التطبيق السيميائي(...) تشمل كل النشاطات الإنسانية(وحتى الحيوانية والنباتية)»[28] وأغلب الثقافات.

ويتميز برنامج" جوزيف كورتيس" بتعدد التحاليل السيميائية لخطابات متنوعة سواء أكانت هذه الخطابات لفظية أو غير لفظية، لأن مصطلح اللغة حسبه لا يقتصر على المعنى اللساني فقط وإنما أصبح يشمل اللغات الطبيعية، وبشكل أوسع كل الأنساق التمثيلية الممكنة[29]. وبالتالي لا يمكننا ان نحصي من خلال هذا المفهوم نوعية الخطابات المعنية بالتحليل ومنها:

- دراسة الخطابات الأدبية والاجتماعية مثل: القانون، الأساطير، العقيدة... الخ
- دراسة التمثيليات المشاهدة، الكتابة، الصور الثابتة أو المتحركة، الفوتوغرافيا... الخ
- دراسة التنظيمات الفضائية مثل: الهندسة المعمارية... الخ
- دراسة الممارسات السيميائية مثل: الموسيقى، اللباس، المطبخ... الخ

ويسعى" جوزيف كورتيس" من خلال تحليلاته السيميائية على مختلف الخطابات إلى إثبات فكرة هامة مفادها أن المقاربة السيميائية قابلة لأن تطبق على أي موضوع ذي دلالة، وعلى أي نوع خطابي[30] لأن شكل التعبير حسبه قد يتجلى في أشكال مختلفة وتتنوع وسائل تعبيره، فالنص الأدبي مثلا يعتمد على الكلمة، والسينما تعتمد على الصورة، ويعتمد الرسم على اللون، لكن المحتوى هو محل انتظام الدلالة والمعنى، وهذا يعني أن:« مواد الدال لا تمثل مركز الاهتمام فاللون أو الشكل لا يقصدان لذاتيهما، وإنما المقصد في الوظائف التي تقدمها»[31].

وبالتالي يمكننا حسب" جوزيف كورتيس" دراسة أي شيء حامل المعنى في إطار ثقافة محددة والمتأمل لمؤلفات" جوزيف كورتيس" السيميائية يجدها مشتملة على العديد من التحليلات التي مست خطابات متنوعة منها ما هو لساني ومنها ما هو غير لساني ليثبت

بذلك شمولية التحليل السيميائي وعدم اقتصارها على النصوص الأدبية فقط، كما كانت في بدايات المشروع السيميائي مع" غريماس" و" كوكي"[32] وقد قدم" جوزيف كورتيس" في كتابه التحليل السيميائي للخطاب تحليلات لخطابات متنوعة مثل:

- تحليل سيميائي لحكاية شعبية روسية(بابا جاغا)
- تحليل لموكب جنائزي.
- تحليل لقصة قصيرة بعنوان الثأرVendetta لـ" مو باسان".
- تحليل لظاهرة اجتماعية(الإضراب).

وقد اشتمل كتابه المعنون بـ:" من المقروء إلى المرئي" على تحليلين لخطابين مختلفين هما:

- تحليل لقصة قصيرة بعنوان" طاقم الذهب La parure" لـ" مو باسان".
- تحليل لشريط صور لـ" رابيي"" Le bazzet phénoméne".

وأظهر" جوزيف كورتيس" في تحليله لهذين النصين المختلفين أن هناك إمكانية للاعتماد على منهجية واحدة تركز على شكل المضمون في مقاربة الخطابات على اختلاف طبيعتها[33].

كما اشتمل كتابه:" دلاليات الملفوظ " على ثلاث تحاليل هي:

- تحليل لخطاب روائي ممثلا في مقطع من رواية" الأسد" لـ:" جوزيف كيسيل".
- تحليل لخطاب ديني ممثلا في نص من الإنجيل.
- تحليل لخطاب مرئي: شريط صور لـ:" رابيي".

كما قام في كتابة" سيميائية اللغة بتحليل حكاية خرافية بعنوان" الغراب والثعلب" لـ:" لافونتين"، كما ضم كتابه:" مقدمة للسيميائيات السردية والخطابية" قراءة سـيميائية لحكاية شعبية فرنسية بعنوان" سوند ريون"، وخصص كتابا بعنوان" الحكاية الشعبية: شعرية وميثولوجيا" لدراسة المتن الحكائي الفرنسي في محاولة منه لإنشاء دلاليات للحكاية العجيبة.

كما نجد لـ" كورتيس" كذلك العديد من المقاربات السيميائية لخطابات عدة نشرها كمقالات في مجلات مختلفة في محاولة منه لإظهار القيمة الحقيقية للمفاهيم السيميائية وذلك

بربط المجال النظري بالتطبيقي ذلك أن التحليلات النصية على اختلاف اتجاهاتها ومسمياتها (تحليل السرد، نحو النص، تحليل الخطاب) كما يقول" كورتيس"« قد تدعي كلها على المستوى النظري الوصول إلى منظومة الخطابات، لكن لا يمكننا قياس حقيقتها الوصفية، إلا في إطار الممارسات العملية التطبيقية»[34].

وهذا ما دفع بالبحث السيميائي لدى أصحاب هذا الاتجاه إلى الاستعانة بالمباحث التي شهدت نتائجها اعترافا بين الأوساط العلمية، ولعل وجود بعض المفاهيم اللسانية الخاصة، سواء تلك التي استعيرت من مباحث لسانية أو غير لسانية مثل مفهوم: الكفاءة، الأداء، العامل، الصيغة، التلفظ، القيمة. الأيقونية والبنية والسنن أو المفاهيم السيميائية المبتدعة كمفهوم السيمات والتشاكل والمحور الدلالي والبنية الأولية للدلالة دليل بين على انفتاح المشروع السيميائي الباريسي.

الفعل السيميائي لدى" جوزيف كورتيس":

يجرنا الحديث عن الاتجاه السيميائي الباريسي إلى الإشارة إلى ذلك البعد الفاصل بين ما كانت عليه البدايات السيميائيات في الستينات مع" غريماس" وحال المشروع السيميائي اليوم ذلك أن هذا المسار السيميائي لا يزال في تحول مستمر[35]. ومن اللازم كذلك الإشارة إلى أن وجود هذا المشروع السيميائي وبروزه، يرجع إلى إسهامات مجموعة من الباحثين وهم:" غريماس" الذي يعد المنظر الأول لهذه المدرسة وكذلك" جوزيف كورتيس" و" ميشال أريفي" و" كوكي" و" شابرول" و" كالام" و" جينينا سكا" و" دولورم" و" لندوفسكي" وغيرهم.

وتبدو إسهامات" جوزيف كورتيس" السيميائية متميزة عن غيرها بالتطبيقات النوعية العديدة حول مختلف الخطابات سواء أكانت لفظية أم غير لفظية ومن جهة أخرى يحاول" كورتيس" استظهار الأبعاد الأسطورية للحكاية الشعبية الغرائبية الفرنسية من خلال طرحه فرضية لدلاليات الحكاية العجيبة، ثم الإسهام في انشاء دلاليات التلفظ.

ويعد القاموس السيميائي بجزأيه والذي ساهم في إنجازه" جوزيف كورتيس" مع أستاذه" غريماس" علامة تحول في المفاهيم السيميائية التي أمست في حاجة إلى تجديد لمسايرة البحث السيميائي وموضوعاته الجديدة، وإسهام" كورتيس" في هذا الإنجاز النظري

دليل بارز يوضح عمق الفعل السيميائي لديه فهذا الباحث لا يرى فصلا بين التنظير والتطبيق فهو يجد أن« فاعلية أي نظرية هي قبل أي شيء في براغماتيتها، وهي تقتصر على الاستقبال الذي يبديه له جمهور القراء»[36] فلا فائدة حسبه إذا بقيت السيميائيات رهينة التنظير فحسب.

ولتوسيع المعرفة السيميائية، والاسهام في نشرها بين جمهور القراء سواء كانوا من المتخصصين بالنظريات اللغوية أم لسانيين أم علماء اجتماع، أم كانوا علماء نفس أو رسامين أو صحفيين، أو مختصين في مجالات التواصل الاجتماعي منه أو الثقافي، قام "كورتيس" في عديد مؤلفاته إلى تبسيط المفاهيم السيميائية الرئيسية وبسطها بهدف توسيع فضاء التلقي، وحتى لا تبقى السيميائيات حسبه مقتصرة على فئة محددة من المختصين اللسانيين والأدبيين.

وتسعى مختلف الاتجاهات اللسانية إلى استكشاف المعنى وفق تصورات مختلفة، فعلاقة التداولية أو المعجمية أو نظرية الأفعال الكلامية أو المنطق الرياضي حسب " جوزيف كورتيس" ليست علاقة إقصاء ونفي وإنما هي علاقة تكامل، فالمشروع السيميائي مقدم بوصفه مجموعة فرضيات وليست مسلمات يقينية وفي هذا يصرح"كورتيس" قائلا« إن سيميائياتنا مقدمة بوصفها مجموعة فرضيات نرجو منها أن تكون ملائمة لتأويل النصوص والخطابات». والغلبة والبقاء في فضاء البحث الدلالي، لتلك الدراسات المبنية على مبدأ التفاعل والانفتاح على الاتجاهات الأخرى.

واقع تلقي المنهج السيميائي الباريسي وتطبيقه على الخطابات السردية في الدراسات النقدية العربية:

هناك العديد من الباحثين والنقاد العرب الذين استفادوا من التيار السيميائي الباريسي وتأسوا بالطرح الغريماسي واقتبسوا مصطلحاته في مقاربة النصوص السردية ذات المنشأ العربي سواء بالتنظير لأعمال هذه المدرسة أو بالتحليل لنماذج نصية أو بالترجمة لمؤلفات سيميائية لباحثين منتمين لهذا الاتجاه السيميائي نذكر منهم:

الباحث" محمد مفتاح" الذي أفاد من المربع السيميائي والعوامل واعتمد معجم " غريماس" و" كورتيس" وقام في مؤلفه" دينامية النص تنظير وإنجاز" بمعالجة مسألة

الدينامية انطلاقا من إمدادات" غريماس" بما يحتويه هذا المفهوم من مفاهيم علمية أخرى أبرزها، الحركة والصراع، النمو، الحوار، التناسل، الانسجام والسيرورة.

كما نجد كذلك الباحث" السعيد بوطاجين" وكتابه" الإشتغال العاملي دراسة سيميائية"، وكذا الباحث" سعيد يقطين" في كتابه" تحليل الخطاب الروائي"، والباحث " محمد الناصر العجيمي" ومؤلفه:" في الخطاب السردي نظرية غريماس"، وكذلك الباحث " سعيد بن كراد" في كتابه" مدخل إلى السيميائيات السردية" والذي استنتج من خلاله أن شمولية نظرية" غريماس" تكمن في قدرتها على استيعاب عناصر شتى تنتمي إلى نظريات سـردية أخرى، كما تجعل من هذه العناصر تدل داخلها وفق منطلقاتها المعرفية الداخلية: أنها بذلك تكشف عن نواقصها وعن الثغرات الموجودة في داخلها من جهة، كما تقدم تبريرا لتصور النظريات الأخرى من جهة ثانية، وفي كلتا الحالتين تؤكد على ضرورة التكامل بين كل النظريات»[37]. كما نجد كذلك الباحث" حميد لحميداني" وكتابه:" بنية النص السردي من منظور النقد العربي. وكذلك الباحث" رشيد عبد المالك" الذي يعد من النقاد والمترجمين الذين تصدوا لشرح نظرية" غريماس" في الخطاب السردي. وتبسيط مصطلحاتها وتطبيقها على النصوص السردية العربية« حتى غدا نموذجا عربيا لتطبيق المنهج السيميائي»[38].

وقد كان لرحلاته الدراسية وخاصة إلى فرنسا دور بارز في صقل مواهبه وتوجهاته إلى دراسة السيمياء الغريماسية بفضل اطلاعه على أهم منجزات" غريماس" ومعاصرته لأعمال " جوزيف كورتيس" و" ميشال آريفيه"، و" جان كلود كوكي"،" لوي بانيه"، فضلا عن لقاءاته النقدية واشتراكه البحثي مع عدد من الباحثين في الحقل السيميائي السردي، وترجمته لمقالاتهم النقدية على غرار الباحثة" آن إينو" وهو ما ساهم في اطلاعه على جهود مدرسة باريس السيميائية الفرنسية في تطوير سيمياء السرد ومن مؤلفاته نذكر:

- مقدمة في السيميائية السردية.
- البنية السردية في النظرية السيميائية.
- السيميائية أصولها وقواعدها وهو كتاب مترجم للمؤلفين" جوزيف كورتيس" و" ميشال أريفي"،" لوي بانيه"،" جان كلود جيرو".
- السيميائية: مدرسة باريس كتاب مترجم للمؤلف:" جون كلود كوكي".

- السيميائيات السردية.

- السيميائيات الأصول، القواعد والتاريخ وهو كتاب مترجم للمؤلفين" لوي بانيه"،" جون كلود كوكيه"،" جان كلود جيرو" و" جوزيف كورتيس".

وغيرها من المؤلفات والمقالات التي تتناول بالتحليل نماذج نصية.

دون أن ننسى كذلك في هذا المجال جهود الأستاذ" جمال حضري" في ترجمته لكتابي" جوزيف كورتيس" إلى العربية وهما: - سيميائية اللغة. - مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية.

وفي الأخير يمكن أن نقول أنه قد تم تبني آليات المنهج السيميائي الباريسي من قبل النقاد العرب بوصفه منهجا لا يعمد إلى تحديد أبعاد وأشكال المعنى المتمفصل في العمل الإبداعي فحسب، وإنما يعمد إلى تحديد وتنظيم مسارات الوصول إليه، وأشكاله وأنماطه عبر متواليات نصية يحددها ويشتغل عليها النص، في بنيته السطحية التي تفضي إلى بنيته العميقة وما بينهما من آليات ومتواليات إشتغالية تتضافر فيما بينها لتحدد أبعاد المعنى الكلي للنص وأشكاله.

الهوامـش:

1- J.M.Floch , introduction quelques consepts fondamentaux en sémiotique générale, questions de sémiotique,(sous la dir .Ahenault), paris, éd, puf 2002, p: 107.

2- ألجيراد جوليان غريماس(1917-1992) ولد في تولة بروسيا، من والدين ليتوانيين، درس علم اللهجات المقاطعاتي(1936-1939) أسس مجلة Languages رفقة" رولانا بارت" وآخرون(1966) والجمعية الدولية للسيميائية واللسانيات بأوربينو بإيطاليا(1970). من أهم دراساته: سار فانتيسودو نكيشوته: استعارة ساخرة من المقاومة النازية(1943). قاموس الفرنسية القديمة(1969) في المعنى محاولات سيميائية(1970). الدلالة البنيوية (1973) السيميائية المعجم المعقلن لنظرية الكلام بالاشتراك مع كورتيس 1979.

3- A.J.Greimas et J .courtés, semiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage,1979, p: 345.

4- برنارد توسان: ماهي السيمولوجيا، تر: محمد نصيف، افريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1944، ص: 09.

5- ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص: 39.

6- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000، ص: 114.

7- رشيد بن مالك: السيميائية أصولها وقواعدها، تقديم عز الدين مناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص: 31.

8- جميل حمداوي: سيميائيات التواصل اللفظي وغير اللفظي موقع: ,aLadaBia/www.maghress.com/ 4777

9- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيمولوجية المعاصرة، تر: حميد لحميداني وآخرون، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 1987، ص: 04.
10- المرجع نفسه، ص07.
11- Gorge Mounim, introduction à la sémiologie. éd de minuit, paris, 1970, p : 197.
12- برنارد توسان، ماهي السيمولوجيا، تر: محمد نصيف، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص: 44.
13- J- coquet: semantique, école de paris, hp, 1970, p: 54.
14- مبارك حنون، دروس في السيميائيات، ص 52.
15- محمد السرغيني، محاضرات في السيمولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط و، ص: 54-96.
16- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م، ص: 09.
17- المرجع نفسه، ص: 10.
18- جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائية الخطابية، تر: جمال حضري، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001، ص: 12.
19- Greimas (a.j), sémiotique structurale, éd. larousse, paris, 1976, p: 177.
20- سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، ط1، منشورات الزمن، الرباط، المغرب، 2003، ص: 78.
21- عبد العالي بوطيب، غريماس والسيميائيات السردية، مجلة علامات في النقد، السعودية، ج 22، م: 06، ديسمبر، 1996، ص: 105.
22- عبد المجيد العابد، مباحث في السيميائيات، ط1، دار القرويين للطباعة، الدار البيضاء/ المغرب، 2008، ص: 39.

23- Greimas (A.J) Courtes (J): semiotique dictionnaire raisonné de la théorie de langage, hachette, paris, 1979, p: 16.
24- سعيد بن كراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتعا، ص: 70.
25- Greimas (A.J) Courtes (J), dictionnaire raisonné de la théorie de langage, éd, hachette, paris, 1976. P: 177.
26- courtes (J), introduction à la sémiotique narrative et discussive, 7 Bd, 1976, p: 120.
27- Ipid, p: 120.
28- J-courtés, sémiotique du langage, France, éd.Armand colin, 2005, p: 69.
29- Ipid, p: 07.
30- J.Courtése, analyse sémiotique du discours, p: 04.
31- J-C. coquet, l'école de paris, éd, hachette, 1982, p: 42.
32- A.Hénault, Questions de sémiotique, p: 96.
33- J.Courtés, du lisible au visible, initiation à la sémiotique du texte et de l'image, Bruxelle, éd, de boeck université, 1995, p: 11.
34- J.Courtes, sémiotique de l'énoncé: application pratique, paris, éd, Hachette, 1989, p: 03.
35- J. Goninasca, et maintenant?, In n live Greimas, (sous la dir.. landowski), éd. PULIM, 1990, p: 57.
36- Ipid, p: 52.
37- سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003م، ص: 8،7.
38- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص (د،ط) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006، ص: 104.